أحداث دير مواس

- هكـذا خلّفـت تجربتـك الناجحة/الفاشـلة فـى المنيـا خلـف ظهـرك، إذن كيـف فكـرت فـى التجربـة التاليـة رغـم التوقـف والتأمـل الطويـل ؟

كنـت قبـل نحـو عـام قـد قـرأت عمـلاً روائيـاً عـن أحـداث ١٨ مـارس ١٩١٩ فـى مدينـة ديـر مـواس والخاصـة بقتـل أحـد قـادة الجيـش الإنجليـزى المسـمى (بـوب) وكيـف خـرج لـه الفلاحـون من مـزارع القصـب ووضعـوا أوانـى العسـل الأسـود علـى شـريط السـكة الحديـد لكـى يوقفـوا سـير القطـار الحربـى الإنجليـزى القـادم مـن جنـوب الصعيـد ليقتلـوا بعـض الضبـاط والجنـود وعلـى رأسـهم هـذا الرجـل، أثارتنـى الحادثـة وأثارتنـى الروايـة المسـماة (مـآذن ديـر مـواس) وكانـت مـن تأليـف الدكتـورة كوثـر عبدالرسـول المترجمـة والأسـتاذة الأكاديميـة وقـد وصفـت فيهـا مـا رُوى لهـا عـن طريـق قريبـة لهـا كانـت قـد تزوجـت أبوزيـد عمـدة ديرمـواس فعرفـت مـن خلالهـا بعـض تفاصيـل المعـارك الوطنيـة فـى الجنـوب مـن وجهـة نظـر هـذه الأسـرة الحاكمـة لقريـة ديرمـواس، وكانـت روايـة مشـوقة للغايـة وإن كانـت تقصـر عـن تقييـم موضوعـى شـامل للأحـداث كمـا تبينـا بعـد ذلـك وتحدثـت مـع حـازم شـحاته حـول الموضـوع

ويبدو أنه تعلق به فاستعار النص الروائى منى. وبعد عودتنا للقاهرة فاجأنى الزميل هشام إبراهيم باقتراح بمعالجة هذا العمل مسرحياً، ولما قرأت هذه المعالجة تبينت مبدئياً أنها لا تصلح للعرض وأنها تحتاج إلى تطويع وفقاً لطبيعة المكان والناس هناك، وأيضا العناصر الفنية المتوفرة والتى كانت فى حاجة ماسة لإعادة تكوين مع اختيار مكان مفتوح لمثل هذا العرض الكبير أو إجراء تعديلات معمارية وفنية على المنصة المسرحية المتاحة التى كانوا يسمونها مسرحاً والكائنة بمقر مجلس المدينة.

إذن فالمهمة شاقة ومتعددة ومركبة، ومع ذلك فقد نصحتهما بالنزول إلى أرض الواقع والالتحام به ومحاولة تبين إمكانية كتابة هذا العرض كما تقتضيه الأمانة التاريخية والموضوعية، وكما يتطلبه فن العرض المسرحى مع مضاهاة ما ورد فى العمل الفنى الروائى الأصلى بالمقارنة مع الوقائع التاريخية الحقيقية، وبالفعل نفذا مشكوريْن ما تم اقتراحهُ، وقد اكتشف حازم شحاتة بحسّه التاريخى بأن ثمة مسافة شاسعة بين الرواية الأدبية وما قد يكون قد حدث بالفعل، إلا أنه لاحظ كما لاحظت أنا أيضًا أن الذاكرة الوطنية الشعبية كانت باهتة أحياناً ومتضاربة أحياناً، وأحياناً أخرى تحكمها تضاربات الأسر الصعيدية وخلافاتها، ولذلك قمت بالسفر إليهما وأجريت معهما – أى هشام وحازم– مناقشة خلصت منها إلى ضرورة الرجوع إلى وثائق التاريخ لا لكى ندونه فى النص المسرحى وإنما لكى لا نتعارض مع وقائعه الصارمة، وأيضاً لكى نستوحيه. ولما كانت هذه

العملية سوف تأخذ وقتاً طويلاً وجهداً كبيرا وتتطلب مالاً كثيراّ لا تستطيع الثقافة الجماهيرية إنفاقه، فاعتبره حازم أحد مشاريعه الكثيرة المؤجلة ,حتى انشغل بعد ذلك فى كتابه (ناس النهر) ثم لم يسعفه الحادث المرير فى الإنجاز. (يقصد هنا حادث بنى سويف) والذى راح فية مايزيد عن ٥٠ مسرحيًا مصريًا.

وبعد قليل فكرت أنا فى هذا المشروع مرة أخرى على أن أشارك حازم فى كتابة النص، وهناك حاولت أن أحقق نفس نظرية (الأوتشيرك) وأسلوبه، وهو اصطلاح فى الأدب والفن الروسى شرحه لنا الدكتور محمد مندور فى أحد مقالاته بمجلة الشرق التى كانت تصدر بالقاهرة فى أواخر الخمسينيات وهى يعنى استخدام أدوات التحقيق الصحفى فى تحقيق الواقع الدرامى فى مكان ما وفى واقعة ما ومع مجموعة بشرية معينة، بطرق الدراما ووسائلها، وكان الناقد الكبير قد وصف به أعمال الكاتب المسرحى نعمان عاشور الأولى مثل المغماطيس ثم الناس اللى تحت، ولكننا فى دير مواس واجهنا نفس الصعوبات مرة ثانية فقررت أن أغير مشروعى الإخراجى إلى عمل من أعمال نجيب سرور .

مسابقة رسم للأطفال حول حادثة مصرع الجنرال الإنجليزى بوب

غير أننى لم أترك الموضوع تماماً، فبعد أن رتبت أمر إقامتى هناك وأحضرت معى ما يكفينى من النقود دون أن أضطر إلى مد اليد للثقافة الجماهيرية، وكان رئيسها السابق حسين مهران

قد جمّد عمل جمعيات الرواد التى كانت تغطى جانيا من مصروفات المخرجين المقيمين لتغطية إقامتهم ومعيشتهم .

هناك جعلت مدير بيت الثقافة يرسل خطاباً إلى مدير التربية والتعليم بدير مواس يطلب منه خمسة أطفال فى المرحلة الابتدائية يجيدون فن الرسم من عشرين مدرسة لكى يصبح عددهم مائة، هنا طلبت تمويلاً من رئيس إقليم وسط وجنوب الصعيد المثقف المخلص الواعى حشمت البنا أن يغطى مصروفات هذه المسابقة التى كنت أنوى أن أعقدها سنويا حول واقعة مصرع الجنرال الاستعمارى المدعو بوب فى ١٨ مارس ١٩١٩، وهو عيد محافظة المنيا القومي. بالفعل أرسل رئيس الإقليم لبيت الثقافة (الذى يخضع ماليا لإشراف رئيس مجلس المدينة) شيكاً بمبلغ يقترب من الآلف جنيه استخدمته فى شراء ٤٠٠ كراسة رسم ومائة علبة رسم طباشير ألوان ومائة علبة أقلام ملونة ومائة برّاية ومائتى قلم رصاص . ثم قمت بطباعة شهادة تقدير بما تبقى كى يوقع عليها المحافظ ورئيس المدينة وأنا، لنسلمها لجميع الأطفال المشاركين فى المسابقة وتم تخصيص عشرة منها للفائزين الأوائل مع شهادات استثمار فئة عشرة جنيهات، ولما زادت تكاليف هذه المسابقة عن المبلغ المتاح قمت بتغطية باقى المصروفات من جيبى الخاص، ولم أُعدَم نصيراً، ففى حين صادفت مدرساً للغة العربية بالمدرسة الثانوية اسمه اسماعيل حلمى مثقف وشاعر يحفظ حادثة بوب بغض النظر عن صراع العائلات والأسر حول انتساب الواقعة والبطولات لهم، لذلك طالبته بأن يشرح (حكى هذه الحكاية

بطريقة الحواديت) لهؤلاء التلاميذ الصغار وقد قام بهذه المهمة بأفضل ما يمكن تصوره من جمال ووضوح وتشويق ووعى إلا أننى فجعت بأمرين : الأول هو أن مديرية التعليم أرسلت لى عشرين طفلاً من خمسة مدارس وليس العكس وأن أغلب الأطفال المائة لم يكونوا يمارسون الرسم أصلا ! بل هم أقارب المدرسين والموجهين وغيرهم. طمعًا فى جوائز وخلافه وهكذا تحلق حولنا عدد كبير من الموظفين والمدرسين والموجهين كان أغلبهم يحلمون بمكافأة من وزارة الثقافة التى يظنون أنها تبعثر المال يميناً وشمالاً. الأمر الثانى حدث أثناء العمل فى هذه المسابقة وتوزيع الكراسات على الأطفال وقيام الصديق الشاعر بشرح حكاية مقاومة الفلاحين للاستعمار الإنجليزى أن اقتحم المكان شخص وضع على جبينه خمسة أو ست زبيبات متقيحة ويرسل ذقناً شعثاء رغم وسامته الأصلية ويطلق فينا صراخاً فظيعاً بأن الرسم حرام ويردد الحديث الشريف «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطيع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان»، كانت ملامحه تفيض بالغضب والتهديد والحقد والخطر، وإذْ بى أنفجر خارجاً عن هدوئى بأعلى صوت كى أطرده وأصر على ذلك حتى ولو اقتضى الأمر الاشتباك معه باليد مهما كانت قوته الجسدية وضعفي. ولكن الموجودين كانوا قد تدخلوا ليحجزوا بينى وبينه ويبعدوه عن المكان. وفى النهاية تركنا الأطفال بعد أن أعطيناهم مهلة لتسليم الرسومات لتحكيمها وبالفعل سلم الأطفال لنا ستة وثمانين لوحة وقد تخيلوا ما رواه لهم الأستاذ وعالجوه معالجات فنية

متفردة بحيث لا تشبه لوحة أخرى، وبالفعل قمت بالتحكيم أنا والشاعر اسماعيل وزميلة فنانة تشكيلية هي السيدة هدى الأخصائية ببيت الثقافة ثم رتبنا اللوحات ترتيباً تنازليا حتى وصلنا إلى ستة وسبعين لوحة والباقى مستبعد لضعفه، وبالفعل جاء يوم ١٨ مارس وعقد احتفال كبير ولم أحضره شخصيا وإنما حضره المحافظ وكبار رجال الحكم المحلى ورئيس المدينة وقاموا بتوزيع الشهادات التى صممتها طالبة فى نهائى كلية التربية بأسيوط اسمها سحر زيدان وهى الآن حاصلة على الدكتوراه فى الآداب وكانت تتمتع بذوق رفيع ووعى شديد حتى أن تلك الشهادة قد دارت حولها معارك عجيبة.

- كيف كنت تجمع عناصرك الفنية من هنا و هناك، برغم غربتك عن هذه المدينة الصغيرة و أهلها ؟

فاتنى أنه أثناء تجولى فى المدرسة الابتدائية جذبت أذنى أصوات جميلة صداحة هى فرقة كورال تقودها مدرسة الموسيقى وهى تتميز بصفتين نفسيتين هى الحزن والحنان الأمومى العارم فضلاً عن تواضعها الجم وأدبها، حينها كانت تقوم بتدريب الأطفال أسفل سلم خلف دورة مياة مشبعة حوائطها بالنشع ردئ الرائحة، وحين سألتها: ألا توجد لديكم غرفة للموسيقى؟ فنظرت إلىَّ بدهشة كما لو كانت تنظر لمستشرق أو سائح أجنبى، وقالت لى: إن الجماعات الإسلامية قد أغلقت غرفة الموسيقى وغرفة الرسم والأشغال بل وغرفة المعمل ثم ألقوا أدواتها خارجها وحطموها قائلين إن الكيمياء سحر الشيطان

ودراسة الطبيعة هى من أعمال الشك فى الخالق، ثم قاموا بالأذان والصلاة جماعة بها وأغلقوها !!!. هذه السيدة قام المحافظ ورئيس المدينة بتكريمها وأمر بصرف ما يعادل عشرة أيام من مرتبها كمكافأة على البرنامج الرائع الذى قدمته فى هذا الحفل، غير أننى علمت أنها لم تتحصل على هذه المكافأة حتى الآن. هنا تمكنت فى أن أساهم من خلال هذه المسابقة ورسوم الأطفال فى إعادة الذاكرة الوطنية لجانب من أهالى دير مواس على الأقل من شارك أبناؤهم فى المسابقة وهذا الاحتفال، خاصة وإننى حيث طلبت من مدير التربية والتعليم أن يقرر صفحة من تاريخ هذه الواقعة الوطنية كحصة أولى فى كل عام دراسى لكل سنة دراسية فما كان منه إلا أن نظر لى بدهشة وهزّ رأسه وقال لي(إن شاء الله).

وفى عمق الليل كنت نائماً فى استراحتى المتواضعة وإذْ الباب يدق بعنف وأصحو من النوم لأجد رجلاً أطول من الباب نفسه وأعرض منه ويسألنى: هل أنت مهدى الحسيني؟ فقلت له مندهشا أنا.. ثم أضأت النور وأجلسته على الكرسى الوحيد بالغرفة وأنا لا أدرى لم جاء وماذا يريد؟ وقال لى هل توجد لديك شهادة ؟ وظننت انه يسألنى عن مؤهلاتى وحين شرعت فى الإجابة قال (شهادة من اللى وزعتوها) فقلت له لا لقد وزع المحافظ جميع الشهادات ولا أملك واحدة، والحقيقة أننى كنت محتفظ بنسخة واحدة لكى أسلمها إلى مكتب الدكتور مصطفى الرزاز رئيس الثقافة الجماهيرية حينذاك، والذى كنت أعمل مستشاراً له، فما كان من ذلك

الرجل ألا أن جأر بصوت عال فى بهيم الليل بلهجة صعيدية خشنة : (مَرتى هتطلجنى الليلة إذا ما كانش ولدى ياخد شهادة) هنا أدركت أننى فى منطقة الخطر، فتمالكت نفسى وقلت له قابلنى فى بيت الثقافة غداً ظهراً وسأعطيك واحدة، وهناك قمت بتصوير الشهادة الوحيدة الملونة المتبقية معى فى نسخة أبيض وأسود أخذها منى الرجل الصعيدى فى لهفة شاكراً داعياً ولم أكن أعلم حينها أن الجميع كانوا قد توجهوا بالأمس إلى ملوى حيث توجد محلات البراويز لوضع الشهادات التى حصل عليها أبناؤهم فى براويز كى يعلقوها على حوائط منازلهم، ومازالت بعض هذه الشهادات ذات الإطار الفرعونى ترسم جدران منازل هؤلاء الأطفال الذين يقتربون الآن من سن العشرين، أما عن اللوحات الفائزة فقد أقمنا بها معرضاً وتنقل هذا المعرض إلى أماكن عديدة منها المكتبة الثقافية التابعة للرعاية المتكاملة فى مدينة المنيا ومديرتها الجميلة إيمان محمود طلعت وهى من أسرة مثقفة وفنانة، ولكن من المؤسف أن هذا المعرض لم يجد فرع ثقافة المنيا غيره لكى يستعين به لتغطية نقص كفاءته وضعف إنتاجه فى كافة مناسبات الاحتفالات الخاصة بالطفولة وغيرها، حتى يعلقوا على أنها من إنتاجهم متناسين دير مواس والأخصائية هدى والشاعراسماعيل وبالطبع صاحب المشروع، غير أن الأثر العميق يظل باقياً حين عادت إلى الذاكرة قصتى الحقيقية مع دير مواس. وقد حدث أن دعيت بعد ذلك ببضع سنوات إلى ندوة عامة عن ثقافة الطفل بمدنية المنيا بنفس المكتبة، وإذا بى ألاحظ وأنا جالس على المنصة أن شاباً

وفتاة من صغار السن يتطلعان نحوى بانتباه شديد وكأنهما يعرفانني جيداً حتى أنني نزلت إليهما محييا ومتسائلاً: من أنتما؟ فعلمت أنهما أخصائيان جديدان في بيت ثقافة دير مواس تم تعيينهما بعد رحيلي من هناك بنحو ثلاث أعوام أو أربع وأنهما يعرفانني حق المعرفة دون أن يريانى وذلك من خلال الأثر العميق الواسع الذى تركته في المدينة كلها، بل وفي بعض القرى المحيطة، فأثبتا بذلك الآية القرآنية التى تقول «إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً».